فرنسا- فراس عزيز ديب

في ذكرى سقوط بغداد: أنهار السلام القرمزية ومومياء الهروب من التاريخ!

تمرُّ كلَّ عام كأنها ذكرى عابرة..وليست تأسيساً لكلِّ ما نعيشُه من فظائع السَّقوط. تخيلوا أننا نتحدث عن ذكرى سقوط بغداد ودخول هولاكو الاحتلال الأميركي على ظهر دبابات الاحتلال الأميركيّ عاصمة التاريخ!

ربما كان التلفزيون العربي السوري وقتها سبَّاقاً بفهم الكارثة عندما انفرد بنشر الموسيقا الجنائزيّة، في الوقت الذي كانت الأفراح والاحتفالات تعم باقي العواصم العربية.

هذا التلفزيون يومها لم يتصرف من بنات أفكاره، بل كان انعكاساً لرؤية سياسية لم تتعاط مع الحدث انطلاقاً من فرضية الحزن على نظام يعرف القاصي والداني حجم الأضرار التي سببها لسورية، بل حَزن على ما هو آت لهذه المنطقة من كوارث، سواء بتخطيط من عدونا الذي «يفاجئنا» ومَنذ وعد بلفور بتبديل الأسلوب والتكتيكَ وما زلنا بعد أكثر من قرن نلعب دور المتفاجئ، أو بسوء تقدير منا بآلية السياسة أولاً وأخيراً مصالح.

مازالت تلك الموسيقا الجنائزيّة تعزف دونما توقف، جميعهم تبدلوا وتغيروا لكن الثابت الأوحد تلك الموسيقا الجنائزيّة، لأنّ من تبناها كل هذه السنوات وضع وجهةَ نظره الشخصية وخلافاته الثنائية جانباً لأن مصلحةَ العراق ووحدة العراق أهم، أما الآخرون فليتهم بقوا مكانهم لكنا صفقنا لهم اليوم. كيف ستتوقف تلك الموسيقا الجنائزيّة وهي بعدَ ما بكت بغداد باتت تبكي اليوم دمشق وطرابلس وصنعاء وبيروت، كيف ستتوقف ومِن بأع بغداد تآمر حتى على نفسه؟ لدرجة بتنا فيها لا نعرف على أي عاصمةٍ سنبكي؟ هذا واللعبة لم تنتهِ بعد، فَكيف ذلك؟

ربما من غير السهل الوصول اليوم إلى التفسير المنطقي الذي يدفع المواطن العربي لانتظار انفجار الوضع في هذه الدولةُ أو تلك، أو الشماتة بأخبار من قبيل حدوث انقلاب هنا ومخططات لقلب نظام الحكم هناك، هُل إن المواطن العربي فعْلياً بات متعايشاً مع مشاهد الدم ورائحة البارود لهذا الحريق المفتوح في هذا الشرق الباشس، فيبدو كمن لا يستطيع العيش من دونه؟

قد نتفهم على مضض موقف بعض العرب من نظام حكم هنا أو هناك، تحديداً أن معظم هذه الشعوب ونتيجة ما تتعرض له من غسيل عقول فإنها تُبنى موقفها على اعتبارات هامشية لا علاقة لها بالمنطق، مذهبية، طائفية، قبلية إلخ، لكن لِمَنْ واقعيين وبسبردة تاريخية بسيطة فإننا نسأل: متى رحل أو رحل قائد عربي وجاء مِن هُو أفضَلُ منه؟ إذاً لماذا التهليل؟

الأمر الثاني أن الدماء التي أُسيلت في هذا الشرق الباشس يجب أن تدفعنا للخوف على البسطاء لأنهم فقط من يدفع الثمن، لكننا ببساطة نختار دائماً العبارات الرنانة، ونتناسى أن حمام الدم إن شرعَ أبوابه لن يتوقف بالسهولة التي نظن، متى سنفهم بأن موقفنا من أي نظام حكم يجب أن ينطلق أساساً من الحرص على الشعب في هذا البلد، هل حقاً ما زال هناك متسعٌ للدماء؟

حتى بمفهوم القضية الجامعة كالقضية الفلسطينية بات الانقسام الواصل حد الشماتة مميزة، هناك من بات يتساءل جدياً: إلى متى؟ إما أن تعلنوا الحرب أو تعالوا للتطبيع، هناك من يبني فرضيات كثيرة على فكرة أن التطبيع سيصنع الرخاء، لكن هل حقاً هناك من لا يزال يعتقد ذلك؟

ببساطة تبدو هذه الفكرة في جزء من صناعةِ الأكاذيب التي تتقنها مواقع التواصل الاجتماعي، يكفي أن ترمي أكذوبة حتى تصبح هي القاعدة، من كان يظن بأنه سيأتي يوم لنرى من يقتعنا بأن الفراعنة عرفوا «الإله الواحد»، وصاموا ثلاثين يوماً؟! لم يبق إلا أن يخبرونا بأن القائد «أحمس» كان من المبشرين بالجنة وأن عمود النور شوهد يصعد إلى السماء من قبره في مدفن «أبيدوس». طبعاً في واقعنا السوري لا يختلف الأمر كثيراً، إياك أن ترجم «عشتار» مثلاً لأنها آلهة الحب، والسوريون القدماء حسب البعض لم يسرقوا ولم ينهبوا! فهو أيضاً عبارة عن مجموعة «من المبشرين بالجنة»! هكذا تدخل في المتاهات السخيفة، هكذا يتم كي العقول ونحن نجلس لنشاهد حرباً شعواء حول «شرعية» ظهور شعر الموميا من عدمه كأنه كفانا كل ما لدينا من مومياوات فكرية وأكاذيب تجعلك تدخل في مرحلة الندم لأن عصا سيدنا موسى شقت البحر، ترى ماذا لو يغرق فرعون الذي هو ليس مصرياً حسب البعض، هل كانوا ليتبرؤوا منه؟!

لكن التاريخ ليس كل شيء، فكم من «مبشر» بالجنة أقنع قطيعه بأن التطبيع المجاني مع الكيان الصهيوني هو واجب شرعي انطلاقاً من الآية الكريمة «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها»، ربما لن ندخل هنا بالسؤال العصيب: «هل تصلح الآيات القرآنية لكل مكان أو زمان؟» كي لا نتهم بتقديم العقل على النقل لكونها في هذا الشرق الباشس تهمة؟ لكننا سنقول لمن يظنون بأن الله لم يهد سواهم إلى التطبيع المجاني: جنحوا للسلم، لكن موشرات البطالة والعوزَ والفقر والنوم في المدافن لم تجنح هبوطاً بل على العكس، جنحوا للسلم لكن الطرف الآخر لم يوفّر حتى من قدمه له السلام على طبق من ذهب فقطّه أو تخلص منه، جنحوا للسلم ولم يتركوا «الناجي الوحيد» بعيداً عن سلمهم لكنهم تآمروا عليهِ، هل علينا فعلياً أن نعود برحلةٍ إلى كل العواصم بما فيها تلك التي دخلها المحتل لجلب الدواء والغذاء لنشاهدَ حجم الرخاء؟!

قرأنا في كتب التاريخ بأن مياه الفرات أصبحت سوداء عندما ألقى غزاتها بمقتنيات مكتباتها في البحر، هل نصدق اليوم بأن هناك من يجهد لنفي حدوث هذا الأمر؟ تماماً كما نحن اليوم أمام من يبرر للمجرم اغتصاب وطنه، هؤلاء نرهم في طغيانهم يعهمون، لأنهم لن يروا كيف باتت مياه أنهارنا قرمزية، وخياناتنا بلون الدفاع عن النفس، وخناجرنا وسيوفنا هي للاستعراض أمام من يقتلنا، هل حقاً إننا نستحق الحياة؟

لم يأخذوا من العراق إلا مقولةً حاكمه يوماً بأنه رأى رؤوساً قد أينعت وقد حان موعد قطافها، وبدل أن نجني ونقطف نتاج مشاريعنا وخططنا الاستثمارية، باتوا كلهم «حجاج» فأين هي تلك الرؤوس؟ على الأقل فإن الحجاج كان سفاحاً لكنه كان «رجلا» في وجه عدوه اليوم، هناك من لا يريد أن يحصد إلا الرؤوس البريئة!

تبدو هذه المراجعة حزينة وكئيبة لا مكان فيها للتفاؤل، لكن بالوقت ذاته هي استذكارٌ لذاك السقوط الذي لم ندرك يومها خطورته، هي استذكارٌ لمن ظنَّ بأنَّ سقوط التمثال هو الدخول إلى الجنة، وفي الحقيقةً عندما ندرك ماذا بقي من هذا المصطلح، سنعرف ذاك النزيف الذي لا يتوقف.

«مصطلح الإرهاب» ومصطلح «الثورة» ومصطلح «الحرية» ومصطلح «الديمقراطية» ومصطلح «الثورة السورية» ومصطلح «الثورة الإيرانية» ومصطلح «الثورة الفرنسية» ومصطلح «الثورة الأميركية» ومصطلح «الثورة الروسية» ومصطلح «الثورة الصينية» ومصطلح «الثورة الكوبية» ومصطلح «الثورة الفيتنامية» ومصطلح «الثورة الجزائرية» ومصطلح «الثورة الليبية» ومصطلح «الثورة اليمنية» ومصطلح «الثورة البحرينية» ومصطلح «الثورة الفلسطينية» ومصطلح «الثورة الأفغانية» ومصطلح «الثورة الكردية» ومصطلح «الثورة الأرمنية» ومصطلح «الثورة الأيرلندية» ومصطلح «الثورة الإسبانية» ومصطلح «الثورة الإيطالية» ومصطلح «الثورة الألمانية» ومصطلح «الثورة الهندية» ومصطلح «الثورة الباكستانية» ومصطلح «الثورة الأفريقية» ومصطلح «الثورة الأميركية اللاتينية» ومصطلح «الثورة الأوكرانية» ومصطلح «الثورة البيلاروسية» ومصطلح «الثورة الكازاخستانية» ومصطلح «الثورة الأوزبكستانية» ومصطلح «الثورة الأرمينية» ومصطلح «الثورة الجورجية» ومصطلح «الثورة الأذربيجانية» ومصطلح «الثورة الأفغانية» ومصطلح «الثورة الباكستانية» ومصطلح «الثورة الهندية» ومصطلح «الثورة الأندونيسية» ومصطلح «الثورة الماليزية» ومصطلح «الثورة الفيلبينية» ومصطلح «الثورة الأسترالية» ومصطلح «الثورة الكندية» ومصطلح «الثورة الأيسلندية» ومصطلح «الثورة النرويجية» ومصطلح «الثورة السويدية» ومصطلح «الثورة الفنلندية» ومصطلح «الثورة الأيسلند